في تكوين «ثقافة الهزيمة» وأصولها

ياسين الحاج صالح

«.. أن نَشْعر بالفخر، لكنْ بقلب منكّس»

(عباس بيضون)

حربٌ خيّبتْ يأسَنا!

فاجأتْنا الحربُ. شوّشتْ مخطَّطاتنا الإدراكية المستقرة فقد اعتدنا أن نَنْهزم و... نرتاح اليوم يبدو أنّ «خطأ» ما قد حصل يبدو أنّه تحقّق لنا فوزٌ من نوع ما. كيف نسمّيه؟ كيف نَشْعر حياله؟ ماذا نفعل به؟ يا لها من ورطة! أما كان أقلَّ إرباكًا لو أنّنا هُزِمْنا مجدّدًا؟!

و«نحن» التي يحيل عليها الكلامُ هنا هي قطاعٌ من المثقفين العرب المعنيين بفكرة العروبة قد يسائلونها ويساجلونها، وقد يصارعونها ويتقاتلون معها، لكنّهم لا يَمْلكون إنكارَها والتخلّي عنها. الـ «نحن» هذه معنيةٌ باستيقاف الحرب التي استوقفتنا وأربكتْنا، بمساءلتها عن آثارها ومعناها، بنزع غرابتها أو «شذوذها،» وإدراجِها في موقعٍ نَعْرفه أو نألفه؛ أو قد تكون هذه الـ «نحن» معنيّةً بالعكس بإعادة هيكلةِ وعينا حول اختلافها وجديدها وطاقتها التغييرية المحتملة.

لكنّ الحرب ليست موضوعًا لهذا المقال. وإنّما سنتخذ من تلك الحرب، التي خيّبتْ يأسًا تَعِبْنا منه حتى سكنّا إليه، مناسبةً لفحصِ وعينا وتقليبِ النظر فيه. وسنحاول النظرَ في عين الهزيمة لا لننغِّصَ على المنتصرين انتصارَهم، بل لنعرفَ أين نضعه... فلا يَضيع.

هزيمتان

تشكّل الوعيُ العربي خلال العقود الأربعة الأخيرة تحت وطأة هزيمة مركّبة هزيمةٍ أمام المعتدي الإسرائيلي، وهزيمةٍ أمام نُظم استبدادية مخيفة وغير محترمة. نقول، منذ الآن، إنّ الأُولى هي الهزيمةُ الأصغر. أما الاستبداد فهو أم الهزائم: إنّه الهزيمة المستمرة.

خطاب الاستبداد انتصاريٌ من جهة، وتخوينيٌ من جهة أخرى. وهو لا يكفّ عن «الانتصار» على الأعداء، ولا عن تخوينِ كلِّ مَنْ يشكّك في ذلك. وبينما كانت الانتصاريةُ ولا تزال إيديولوجيةً، فقد أَضْحت الهزيمةُ ثقافةً. أعني بذلك أنّها كفّت عن أن تكون مشكلة، بل بات الركونُ إليها حلاً مريحًا، نفسيّاً وفكرياً، لتَجاذُبنا المعذَّبِ بين آمالٍ لا تتحقّق وكوارثَ لا تتأخّر ننهزم كي لا ننهزم نعيشُ في الهزيمة كثقافة، كحالٍ مستقرّة، كيْلا تكون هزيمتُنا طازجةً كلَّ مرة، راعفةً كلَّ مرة، معذِّبةً كلَّ مرة. ولكنْ لأنّ الهزيمة باتت ثقافةً، فإنّنا لم نعُدْ قادرين على مجرد استنكار نُظُم التعذيب والقتل والإذلال التي تتحكّم بنا، ولا على إدراك الكذبة الكبيرة التي تجعل من القَتَلةِ واللصوصِ أبطالاً قوميين.

الفكرة الشائعة عن ثقافة الهزيمة هي أنّها استبطانُ الشعور بالضعف أمام إسرائيل، والتسليمُ لها بالتفوّق، والكفُّ عن مقاومتها، وربما الانتقالُ إلى لوم مَنْ يتجاسر على المقاومة. غير أنّ هذا جانبًا واحدًا فحسبَ من ثقافة الهزيمة. الجانب الأهمَ هو سلبُ المجتمع قدرتَه على الفهم والاعتراض والانتظام الطوعي المستقلّ، سواءٌ ضدّ عدوّ خارجي أو في مواجهة شروطٍ ومصاعبَ وتحدّياتٍ تنمويةٍ وفكريةٍ واجتماعية. ولو اقتصر الأمرُ على هزيمة عسكرية أمام العدوّ، أو على شروط تاريخية عسيرة..، لكانت المشكلةُ عمليةً وتتطلب جهودًا أكبر ووقتًا أطول. غير أنّ ما جعل من أوضاعٍ صعبةٍ هزيمةً، وجَعَلَ الهزيمةَ ثقافةً، وجعل من مشكلةٍ عمليةٍ أزمةً كيانيةً، إنّما هو إخفاقُنا في حلّ المشكلة السياسية؛ أعني ترويضَ غول السلطة واستئناسَه، وتحويلَ السلطة الجهازية إلى دولةٍ مؤسسية. بهذا الإخفاق أَعَدْنا «كسبَ» الهزيمة أمام العدوّ، وأقصد ضمانَ إعادة إنتاجها بصورة مستمرة والغول الذي لم نتمكّن من ترويضه لم يلبثْ أن أَخَذَ على عاتقه ترويضَ كلِّ واحدٍ منّا وكلِّنا معًا.

إنّ تقصّي أصول إخفاقنا السياسي يَخْرج عن نطاق هذا المقال الوصفي. لكنّنا نكتفي بالقول إنّ الاستبداد، الذي خَبِرْناه قبل

دجوني باربر

سماح إدريس يقرأ لأطفال قرية سلعا

هزيمة حزيران، انفلتَ بعدَها من عقاله، فصار طغيانًا مهولاً، هدفُه الحفاظُ على نُظُمٍ فقدتْ أدنى احترام مِنْ رعاياها. وليس أقلَّ أهميةً أنّنا لم نَعُد نَستطيع إضفاءَ النسبية أو المرحلية على ذلك الاستبداد، أي النظرَ إليها كـ «ثمن» ـ ربما يكون ضروريًا ـ من أجل التحرير أو الوحدة أو التقدُّم كما كان الحالُ في مرحلة «المشروع القومي». فالحقّ أنّ اندلاع الطغيان وتماديَه عقودًا قد حَوّلا اتجاه المشاعر من الحقد على العدوّ إلى الحقد على الذات العاجزةِ والمشروخة. ذلك أنّ الطغيان في قاعه المعاش هو عدوانٌ يوميٌّ على جميع الأفراد، وتعميمٌ للخوف: خوفِهم من إرهاب أجهزة الطغيان، وخوفِهم من بعضهم، وكسرِ عيونهم، وإذلالِهم، وسحق مَنْ يتجاسر على الاعتراض. وفي المجمل، فإنّ الطغيان إسكانٌ للخوف في القلوب والعيون. إنّه خوفُ الناس من الخوف. هذا هو جدارُ الخوف الذي نتحدّث عنه عند تناول آليّات الطغيان. إنّه جدارٌ مبنيٌّ داخل كلّ إنسان، الأمرُ الذي يجعل كلَّ واحد منّا سجينًا داخل خوفه. ومن ثم لا يحتاج الإرهابُ إلى مبرِّرات خارجية، على شكل احتجاجاتٍ أو مقاومةٍ لسلطته؛ ذلك لأنّ مبرِّره قائم في طبيعته، في حاجته إلى سيطرةٍ مطلقةٍ مؤبّدةٍ على رعاياه. لذلك فهو يحتاج إلى تمارينَ إرهابيةٍ، واستعراضاتِ خضوعٍ متكرِّرة، كي ينشط استسلامَ «الشعب» المنكود

هنا تتحوّل الهزيمةُ الخارجيةُ إلى انكسار داخلي. فإذا كانت عشرةُ أيام من التجويع كافيةً لترويض النمور حسب قصة زكريّا تامر البديعة، فإنّ ما يقارب أربعين سنةً من القمع والإذلال اليومي والتجويع تكفي لتدجين شعبٍ أبيّ. لقد هزمتْنا إسرائيلُ مرةً أو مرتين أو خمسًا، لكنّ مَنْ يهزمنا كلَّ يوم ويُذِلُّنا كلَّ يومٍ هو غولُ الطغيان.

نقدُ نقدِ الأنظمة

شاع في ظل أنظمة الطغيان هذه نوعٌ من النقد السياسي، عمومي وتجهيلي، بثلاثة معانٍ. فهو، أولاً، لا يسمِّي الأشياءَ بأسمائها، لأنّ ذلك مخيفٌ وباهظُ الثمن. وهو، ثانيًا، لا ينفتح على أيّ جهدٍ تغييري أو تجاوزي، أو يرتبط ببناء ثقافة مقاومة. وهو، ثالثًا، يتحدّث عن «أنظمة» لا على التعيين، سيئةٍ على نحوٍ غيرِ محدّد، ولأسباب غير محددة.

في عين هذا النقد بدا سوءُ الأنظمة قدرًا مقدورًا، جزءًا من نظام الطبيعة، لعلّه متصلٌ بثقافتنا أو لغتنا أو عِرْقنا أو بالدِّين الإسلامي، الأمرُ الذي أَغْنى عن النظر في تواريخ البلدان المحكومة وتكوينِ نُخَبها ونُظُمها الاقتصادية وبيئتها الجغرافية

في تكوين «ثقافة الهزيمة» وأصولها

والجيوسياسية. لقد غرس هذا النقدُ الدوغمائي شعورًا مُقعِدًا بالنقص، هو مكوِّنٌ أساسي لثقافة الهزيمة. وأَسْهم في الحصيلة العامة في صنع ثقافة الهزيمة، وبات وجهًا أساسيًاً من وجوهها. لا غرابة، إذن، أن يتعايش هذا «النقدُ» مع الأنظمة جميعًا، وأن تتولّى إنتاجَه منابرُها الإعلاميةُ ذاتُها فهو، وإنْ كان أصلُه ردّاً على الهزيمة، إلاّ أنّه نقدٌ مهزومٌ هو ذاتُه. بل هو في حقيقة الأمر «نَقٌّ،» أيْ تذمُّرٌ وشكوى، لا يُسْنِدُ سخطَه من الأوضاع القائمة إلى أيِّ أفقٍ اعتراضيٍّ أو تطلُّعٍ تغييريّ.

وبينما ظلّ هذا النقدُ عاطلاً إزاء القبائل الحاكمة (لعموميّته أولاً ولكونها لا تقيم أصلاً وزنًا لرأي مواطنيها فيها ثانيًا)، فقد كان فعّالاً جداً ضدّ الفكرة العربية بدأنا بالنقد، ثم غَلَبَتْنا المرارةُ فتحوّلنا إلى اللوم، ثم غَلَبَنا العجزُ فتحوّلنا إلى اللَّطْم. هذا الانزلاق التدريجي أَبْدَلَ النقدَ الضروري للذات، بما في ذلك الثقافةُ والدينُ واللغة، النقدَ الذي ينفصل منهجيّاً عن تلك الذات كي يراها بصورةٍ أكثرَ موضوعيةً، وكي يَعْمل على إصلاحها، أبدله بانفصالٍ روحيّ عنها وتمزيقٍ لوجهها واستهتارٍ بمخيّلتها ورموزها. أخذنا ننتقم من عجزنا بالتخلّي عن مطامحنا، وننتقم من إخفاقنا في مواجهة العدوّ بتحطيمِ ذاتنا.

مأسسة الهزيمة

هكذا بينما تمأسست الهزيمةُ في النظم الحاكمة، فقد عَثَرَتْ في النقد العمومي ذاك على الثقافة التي تثبِّتُها وتطبِّعها وتموِّه خضوعَها باصطناع «لغةٍ نقدية.» والحال أنّ ثقافةً لا تَجْسر على قول الحقيقة هي ثقافةٌ لا يُمْكن إلاّ أن تكون مهزومة. ولا يحتاج المرءُ إلى جهود كبيرة ليتبيّن أنْ ليس ثمة حيِّزٌ معترفٌ به في ثقافتنا المعاصرة للحقيقة، سواءٌ في القضايا السياسية بخاصة أو القضايا الدينية، وسواء كانت حقيقةً أخلاقيةً موضوعُها المسؤولية، أو حقيقةً موضوعيةً نتوسّل البحثَ العلميّ سبيلاً إليها.

هذا، وليس الهجاءُ القَبَليُّ لأعدائنا هو ثقافةَ الهزيمة بل إنّ الهجاءَ الرخيص للعدوّ والكلامَ على جرائمه وإرهابه أضحيا الوسيلة المجرَّبة للتغطية على الطغيان [النظامي] وجرائمه وإرهابه. ولا نغالي إنْ قلنا إنّ ممارسات الطغيان في بلادنا لا تَصْمد للمقارنة مع ممارسات إسرائيل ضدّ الفلسطينيين فقط، وإنما تبزُّها وتزري بها.

ولذلك سيبقى نقدُ ثقافة الهزيمة مهزومًا هو ذاتُه ما لم ينفتحْ على ثقافةٍ ناقدةٍ للطغيان، وعلى سياسةٍ مقاومةٍ للطغيان، وعلى حركاتٍ اجتماعيةٍ مكافحةٍ ضد الطغيان. وللأسف، فإنّ العيّنات التي تسنّى لنا متابعتُها في الأيام التالية للعدوان الإسرائيلي الأخير من «نقد ثقافة الهزيمة» تنتمي في أغلبها إلى هذا الصنف الانتصاري الأجوف بل إنّ أبرزَ منتجيها هم سلطاتٌ تحتقر مواطنيها ولا تكفّ عن تنكيدِ عيشهم وإلحاقِ الهزيمة بهم؛ أو هم وكلاؤها الإيديولوجيون

نعم، لقد هزمتْنا إسرائيل. لكنّ ثقافة الهزيمة ليست نتاجًا تلقائيّاً للهزيمة العسكرية أمام إسرائيل. فَمَنْ حَوَّلَ الهزيمةَ إلى نظامٍ وثقافةٍ واستقرارٍ هو نُظُمُنا الحاكمة. وحتى لو لم نُهزم أمام إسرائيل، أو لم تكن إسرائيلُ موجودةً، فإنّ درجةَ وحشيةِ وتعسُّفِ الطغيان الذي يَسْتعبدنا كافيةٌ لتحطيم أيّة إرادة للاعتراض والمقاومة. لذلك فإنّ ثقافة الهزيمة تُنْقض ولا تُنْقد، أو أنّه لا نَفْعَ من نقدها إلاّ بقَدْرِ ما يكون ذلك جزءًا من عمليةِ نقضٍ تتجاوزه وتنفتح على أفقٍ تغييري، أخلاقي وحيوي، لهياكلنا السياسية. وإنّه لمفهوم أن يُوحي سَدَنَةُ الهياكل هذه أنّ هزيمتَنا أمام إسرائيل هي هزيمةٌ عسكرية، وأنّ مواجهتَنا لإسرائيل هي مواجهةٌ عسكرية؛ فهذا يبرِّئهم من المسؤولية عن الهزيمة (بحجّة أنّ «إسرائيل أقوى»)، وفي الوقت نفسه يبرِّر سلطاتِهم المطلقة (بحجّة «أنّنا في حالة حرب»)، والأهمّ أنّه يَحْجب عمليةَ الانهزام المستمرة أو دينامية الهزيمة التي تتجسّد في هذه الأنظمة. وإذا بدا أنّ هزيمةَ حزيران ١٩٦٧ حاضرةٌ ومعاصرةٌ لنا كأنّها جرَت العامَ الماضي، فذلك بفضل

غابرييلا بوليسوفا — الضاحية من خلال زجاج سيارة

إعادة إنتاجها المستمرة في نُظُمٍ سجّانة فَقَدتْ منذ عقودٍ الشعورَ بأنّ تعذيب مواطنيها وقتلَهم محرَّم، وبأنّ نَهْبَ الثروة الوطنية جريمة.

مقاومتان

خلافًا لما تحاول سلطاتٌ انتهازيةٌ قولَه، فإنّ نقيضَ ثقافةِ الهزيمة ليس الإيديولوجية الانتصارية، وإنّما نقيضُهما معًا هو ثقافةُ المقاومة. وأولُ ركنٍ من هذه الثقافة هو احترامُ الحياة الإنسانية، والمساواةُ في الكرامة بين الناس، وتفكيكُ البنى القمعية التي أَلْحَقتْ من الهزائم بشعوبنا أكثرَ ممّا ألحق جيشُ إسرائيل ببلداننا. إنْ لم ندركْ ذلك، فإنّنا سنبقى نتخبّط في وحل الهزيمة.

وينبغي القولُ في هذا السياق إنّ ثقافة المقاومة ثقافة وليست مقاومة، خلافًا لما يفضّل أن يعتقده متكلّمون علاقتُهم بالثقافة (كما بالمقاومة) تُنافِس العَدَمَ. والقول إنّها ثقافة يعني أنّ شرطَها الأول هو الحرية، وشرطَها الثاني نزعُ القداسة ـ وأوّلُها قداسةُ المقاومة. المقاومة ليست مقدَّسًا يعلو رؤوسَ المواطنين الأحرار وقلوبَهم وضمائرَهم، بل هي نشاطُهم المكرَّسُ للدفاع عن حرياتهم وعن أوطانهم التي تَكْفل حريتَهم وتحترم استقلالَ ضمائرهم. إنّ تقديس المقاومة هو حيلةٌ تتوسّلها سلطاتٌ ومنظماتٌ لحماية نفسها من الاحتجاج، وللسيطرة على عقولِ الناس وأفكارهم. ليست ثقافةُ المقاومة شيئًا غيرَ الحرية وقد صارت ثقافةً وأساسًا لكلّ ثقافة.

ما أريد الخلوصَ إليه هو أنّ مقاومة الاحتلال دون مقاومة الاستبداد موقفٌ متهافت، لا يبدِّد الجوهرَ التحرري للكفاح ضد الاحتلال لمصلحةِ ثقافةِ هويةٍ أو تشريعِ سلطاتٍ استبدادية فحسب، بل هو يُخوِّن الكفاحَ ضد الاستبداد ويُجرِّمه ويمدِّد في عمر ثقافة الهزيمة.

على أنّ قولَ «لا للاحتلال ولا للاستبداد معًا» ليس البلسمَ الشافي الذي ربما اهتدَيْنا إليه بعد طولِ ضلالٍ لتمزُّق وعينا وشلَلِ إرادتنا، بقدْرِ ما هو محنتُنا ومأساتُنا، بل وقَدَرُنا ـ بأقسى معنى للكلمة. ولأنّه كذلك فلا مَهْرب منه، ولا بديلَ من مواجهته. وإنّها لمواجهةٌ تنتهي حتمًا بمأساة.

المأساة تنتظرنا. متى وأين؟ لا يُمْكن أن نَعْرف. لكنّها أمامنا، في شكلِ مذبحةٍ هائلةٍ تتلو تمرُّدًا من تمرُّداتنا؛ في شكلِ أرمجدون أپوكاليپسية من النوع الذي بَشَّرَ به بعضُ معتوهي اليمين الپروتستنتي الأميركي؛ في شكلِ محرقةٍ نوويةٍ إسرائيلية تقتل الملايينَ منا

في تكوين «ثقافة الهزيمة» وأصولها

كان أفضلَ بكثير لو أنّنا بلدانٌ وادعةٌ ضعيفةٌ تواجِه عدوانًا من قوًى توسعية مثل إسرائيل وأميركا. كان أفضلَ بكثيرٍ أيضًا لو أنّنا نعيش في ظلّ دكتاتوريات عاتية، لكنّنا غيرُ مهدّدين بطغيانٍ دوليّ لا يكتفي بنهب ثرواتنا بل ويحتقرنا ويزدري كلَّ شيء نحترمه ونحبّه. أمّا أنْ نقع تحت حذاءِ طغيانيْن، فهذا مجدٌ مسمومٌ ليتنا حُرِمنا منه!

حُكْمُ العار!

إنّ أوّل ما ينبغي الإقرارُ به لاستعادة شرفنا هو أنّنا فاقدون للشرف منذ أربعين عامًا، لا لأنّنا لم نَعْرفْ كيف نردّ على العدوّ الذي هَزَمَنا، ولكنْ لأنّنا تركنا المهزومين يَحْكمونَنا. كان يُمْكن لهزيمة حزيران، على فداحتها، أن تكون عابرةً لو تعاملْنا معها كمأساة، فنكّسْنا أصواتَنا وعيونَنا وقلوبَنا لبعض الوقت، نستوعب فيه ما جرى، ونُصْلح من أمرنا ما نستطيع. غير أنّنا، بدلاً من ذلك، استلمنا المهزومون الذين لم يعودوا يرون العالَمَ، وأوطانَهم قبلَ غيرها، إلا كغابةٍ لا قانونَ لها غير القوة، وتكفّلوا بإلحاق الهزيمة الأشدِّ نكرًا بنا في تاريخنا الحديث. استلمونا وهم يَقْرعون طبولَ النصر. ومن أجل أن يمحوا عارَهم، كان عليهم أن يهزمونا جميعًا ويمرِّغونا بالعار. ينبغي أن تنكّس الرؤوسُ جميعًا كي تبقى رؤوسُهم مرفوعةً. ينبغي اغتيالُ الحقيقة كي تصيرَ أكاذيبُ الطغيان ديانةً رسمية. ويجب كسرُ عيون الناس جميعًا كي يصير المهزومون أبطالاً. ولا بدّ من تحقير العقلاء الأحرار كي تعمّ بركاتُ عبقريةِ الطاغيةِ الأمةَ كلَّها

ترى، كيف يمكن ألاّ نرى مطالبات الإسرائيليين لحكومة أولمرت بأن تَرْحل لأنّها «أخطأتْ،» وقبلها استقالةَ غولدا مائير لأنّها «قصَّرَتْ» في حرب ١٩٧٣، فيما نطالب نحن بأن نكون شهودَ زور ونهنِّئ أنفسَنا لأنّ المهزومين ما زالوا يَحْكموننا؟

لسنا مهزومين لأنّ أرضنا محتلة بل لأنّ نفوسنا محتلة. وليس الإسرائيليون منتصرين لأنّهم يحتلّون فلسطين أو غيرَها، بل إنّهم يحتلّون لأنّهم منتصرون ـ على الخوف والكذب؛ لأنّهم مسؤولون.

زبدةُ القول إنّ أوّلَ التحلّل من ثقافة الهزيمة هو التحرُّرُ من حكم الطغيان. وأولُ تحرير فلسطين هو تحريرُ فلسطيناتنا الداخلية قد نكتشف عندها كم أنّ فلسطين لا تستحقّ كلَّ هذا الخراب، وقد نتبرّع بها لليهود!

دمشق

ياسين الحاج صالح

كاتب سوري ومراسل الآداب في سوريا